القناعة

إنَّ المتأملَ لأحوالِ كثير من الناس يرى العجبَ العُجاب, يرى الهمومَ, يرى الأحزانَ, يرى المشاكل والغم. يجدُ الواحدُ منهم مستعداً أنْ يقاتلَ حتى أقربَ الناسِ إليه؛ يقاتِل زوجته, يقاتِل ولدَه, يقاتِل صديقه, من أجلِ ماذا؟ من أجلِ هذهِ الدنيا! من أجلِ الأموالِ! من أجلِ التجارةِ!. نعم أيها الأحبة إنَّ المتأملَ لأحوالِ كثيرٍ منَ الناسِ لا يراهم يعيشونَ في هذهِ الدنيا راضين بقضاءِ اللهِ وقدرهِ. لقد فقدوا الإحساسَ بنعمِ اللهِ عليهم فتراهم ساخطين على ما في أيديهم, متغافلينَ عمّا وهبهُم اللهُ من نعمٍ لا تُعد ولا تُحصى, يهتفون دائماً: ينقصنا كذا وكذا... , مُتطلعين إلى ما في أيدي الآخرين, يَبكون حظَهم وينعونَ أنفسَهم وينوحون على دُنياهم. لا يكفيهم طعامٌ يُشبعهم, ولا يرضيهم لباسٌ يسترهم, ولا مساكنُ تأويهم. بل هم دائماً في سخطٍ على الله. يصبح أحدُهم ويمسي ساخطاً على ربه. يشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحم! لا يقتنع بكثيرٍ ولا بقليل. كالذي يأكلُ ولا يشبع, لمَ؟ لأنه دائماً ينظر إلى من هو فوقه. إذا كان يسكن بيتاً نظر إلى من يسكن قصراً, وإذا كان يركب سيارةً نظر إلى من يركب طائرةً وهكذا لا يهنأ له عيش إلا إذا صار أحسن الناس في كل شيء, وذلك محال. إذن ما الحل؟ الحل هو ما أرشدنا إليه رسولُ اللهِ ﷺ من القناعة. والقناعة هي الرضا بما قسم اللهُ لك ولو كان قليلاً. وهي عدم التطلع إلى ما في أيدي الآخرين. وهي أن تعلم أنَّ الأرزاقَ مكتوبةٌ مقسومةٌ لا تزيدُ ولا تنقص وهي علامة على صدق الإيمان. جاء في الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (قد أفلحَ من أسلم ورُزق كفافاً وقنعه اللهُ بما آتاه). فالمسلمُ يستشعر نِعمَ اللهِ عليه, يرى نِعمَ الله عليه في عافيته وصحته, يراها في ولده, يراها في مطعمه ومشربه, يراها في مسكنه, يراها في هدايته للإسلام فيشكر هذه النعم بالرضا والقناعة.

أخي الحبيب: لو تأملت في القرآن الكريم لوجدت الآيات الكثيرة التي تذكر وتحث على القناعة, فتارةً يأمرك الله أن تكون قنوعاً (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) النساء 6. وتارةً يمدح أهل القناعة (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجرَ إليهم ولا يجدون في أنفسهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الحشر 9. (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفُهُم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً). ويقول اللهُ عز وجل (من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ونجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل 97. قال عبدُ الله بن عباس وعلي بن أبي طالب والحسن البصري رضي اللهُ عنهم: المقصود بالحياة الطيبة القناعة. أي أن تقنع بما رَزقك اللهُ من مالٍ, أن تقنع بما رزقك الله من زوجة, أن تقنع بما رزقك الله من ذريةٍ, أن تقنع بما آتاك اللهُ سبحانه وتعالى من مسكنٍ أو مركبٍ أو ملبسٍ أو مشربٍ أو مطعمٍ. هذه هي القناعة التي أمرنا اللهُ بها.

ويبين النبيُ ﷺ أن القنوعَ هو أعزُ الناس حيث جاء في الحديث (شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس) فالعزيز هو الذي يستغني عن الناس, لا يمد يده للناس, لا يطمع فيما عندهم. هذه هي العزةُ وهذه هي القناعةُ. لذا بشر النبي ﷺ أهل القناعة بالجنة (طوبى لمن أسلم وكان رزقه كفافاً وقنعه الله). وقدوتنا في القناعة هو رسول الله ﷺ فكان ﷺ أعظمَ الناس قناعةً في هذه الدنيا. وكان ﷺ يرضى بما عنده, ولا يسأل أحداً شيئاً, ولا يتطلع إلى ما عند غيره. فكان ﷺ يعمل بالتجارة في مال خديجة رضي الله عنها فيربح كثيراً من غير أن يطمع في هذا المال, وكانت تُعرض عليه الأموال التي يغنمها المسلمون في المعارك فلا يأخذ منها شيئاً, بل كان يوزعها على أصحابه, وكان

دعاؤه ﷺ (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) وكان يقول ﷺ (اللهم قنعن بما رزقتني واخلف علي كل غائبةٍ لي بخير).
لهذا كان ﷺ أوسع الناس صدراً, وأطيب الناس عيشاً, وأسخَ الناس يداً. كان ﷺ يمر الهلال والهلال والهلال ولا يوقد في بيت أزواجه ناراً, ومالهم طعام إلا الأسودان {التمر والماء}. كان يبيت الليالي ﷺ طاوياً, لا يجد عشاءً, يتقلب على فراشه من شدة الجوع. وكانت حياته حياةَ الزهد, زهدٌ في طعامه, زهدٌ في ثيابه, زهدٌ في فراشه. كان ينام ﷺ على الحصير فرآه الصحابة وقد أثرَ الحصيرُ في جنبه من خشونة الحصير, فأرادوا أن يُعدوا له فراشاً ليناً يجلس عليه فقال لهم كما روى الترمذي وابنُ ماجة: (مالي وما للدنيا, ما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرةٍ ثم راح وتركها). كانت الدنيا لا تساوي عنده شيئاً. ما كان يعجبه من الدنيا إلا المؤمن التقي. وكان ﷺ يربي أصحابه على القناعة. فلقد أوصى ﷺ أبا هريرة ﷺ فقال له: (يا أبا هريرة: كن ورعاً تكن أعبد الناس, وكن قنِعاً تكن أشكر الناس, وارضَ للناس ما ترضاه لنفسك تكن مسلماً).
وتعالوا معي أيها الأحبة لنشاهد هذا الموقف من رسول الله ﷺ مع الصحابي الجليل حكيم بن حزام حيث جاء هذا الصحابي إلى رسول الله ﷺ وسأله أن يعطيه من الأموال, فأعطاه. ثم سأله مرةً ثانية فأعطاه, قم سأله مرةً ثالثة فأعطاه. ثم قال له معلماً: يا حكيم! إن هذا المال خَضِرٌ حلو {أي أن الإنسان يميل إلى المال كما يميل إلى الفاكهة الحلوة اللذيذة} فمن أخذه بسخاوة نفسٍ {من بغير سؤال ولا طمع} بورك له فيه, من أخذه بإشراف نفس {أي بسؤال الناس تصريحاً أو تلميحاً} لم يُبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع. واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى {أي اليد التي تعطي خيرٌ من اليد التي تأخذ}. متفق عليه. فعاهد حكيمُ النبيَ ألا يأخذ شيئاً من أحدٍ أبداً حتى يفارق الدنيا. فكان بعد ذلك يطلبه أبو بكر الصديق ﷺ ليعطيه نصيبه من المال فيرفض أن يقبل منه شيئاً. وعندما تولى عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة دعاه ليعطيه فرفض حكيم. فقال عمر: يا معشر المسلمين! أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفيء {الغنيمة} فيأبى أن يقبله. وهكذا ظلَّ حكيم قانعاً لا يتطلع إلى المال بعد نصيحة رسول الله ﷺ التي تعلم منها ألا يسأل أحداً شيئاً,حتى أنه كان يتنازل عن حقه ويعيش من عمله وعرق جبينه.
وهذا الصحابي الجليل أبو ذر أرسل إليه عثمان بن عفان ﷺ مع عبدٍ له كيساً من الدراهم وقال عثمانُ لعبده: إن قبل هذا فأنت حر. فأتي الغلام بالكيس إلى أبي ذر وألحَ في قبوله, فلم يقبل. فقال له: اقبله! فإن فيه عِتقي. فقال: نعم ولكن فيه رقي.
هكذا ربى رسولُ الله ﷺ أصحابَه على القناعةِ وهكذا يوصي أمته بالقناعة حيث قال (لا تنظروا إلا من هو فوقكم وانظروا إلى من هو أسفل منكم فهو أجد ألا تزدروا نعمة الله عليكم) وقال ﷺ (فإن ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى).
أسأل الله عز وجل أني يرزقنا القناعة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فيا فوز المستغفرين استغفروا الله.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (ليس الغنى عن كثرة العَرض ولكن الغنى غنى النفس). كثير من الناس يظن أن الغني هو الذي يملك الأموالَ وأشياءَ الدنيا. وهذا فهمٌ خاطئ. فقد بين النبيُ ﷺ أن حقيقة الغنى تكون في القلب القنوع. فكم من إنسانٍ يملك أموالاً تكفيه وتكفي أولاده ولو عَمَرَ ألف سنة ولكن تجده حريص على الدنيا متمسكٌ بها, بخيلٌ على نفسه وأولاده. همه أن يزيد في رصيده, جشعٌ, طماعٌ, جماعٌ, مناعٌ كالذي

يأكل ولا يشبع. وترى إنساناً آخر فقير الحال لكنه مع ذلك قد جعل اللهُ غناهُ في قلبه وجمع شمله. تراه سعيداً في حياته يطفي بالسعادة على أبناءه. فهذا هو الغني. رُويَ عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: (أترى يا أبا ذر أن كثرة المال هي الغنى؟ إنما الغنى هو غنى القلب والفقر فقر القلب. ومن كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا ومن كان فقره في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا) رواه ابن حبان وصححه الألباني.

فمطلوب منك يا أخي أن تكون قنوعاً. وأعلم أن القناعة لا تمنعك من العمل والأخذ بأسباب الرزق. ولا تمنعك من أن تكون طموحاً وذو همة عالية. ولكن المحظور أن تسخط على الحال الذي أنت عليه وتسعى لتغييره بما يغضب اللهَ. تسعى لتغييره بالربا والسرقة والرشوة وغير ذلك من الطرق المحرمة. فالقناعة جميلة, كنزٌ لا يفنى, سرٌّ من أسرار الحياة السعيدة. فقناعتك بما لديك وعدم التذمر هو سر سعادتك.

فكلما نظرت إلى الغير اسودت الدنيا بوجهك وطلبت ما ليس لك به حق فالخير مقسم وموزع بين البشر بالعدل والمُقسم هو العادل سبحانه وتعالى فما لديك هو نصيبك من هذه الدنيا وما لدى غيرك هو نصيبه منها. فأرضَ بنصيبك تسعد. و إلا عافاك الله مما سترى ومما سيحل بك من هم وغم وحزن ونكد ولا طاقة لك به.

واعلموا أيها الأحبة أن القناعة ثمار وفوائد عديدة منها:

1- سعادة النفس وهدوء البال والشعور بالأمن والسكنية والطمأنينة.

2- ومن ثمارها الوقاية من أمراض القلوب التي تفتك بالقلب وتذهب بالحسنات كالحسد والغيبة والنميمة والكذب وغيرها من الخصال الذميمة. فمن قنع برزقه لا يدخل قلبه الحسد لإخوانه على ما أوتوا لأنه راض بما قسم اللهُ له. قال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود, و أهنأهم عيشاً القنوع.

3- القناعة سبب البركة. فهي كنز لا ينفذ قال ﷺ (من أصبح منكم آمناً في سربه, معافىً في جسده, عنده قوت يومه, فكأنما حِيزَت له الدنيا) رواه الترمذي وابن ماجة. فالمسلم عندما يشعر بالقناعة والرضا بما قسمه الله له يكون غنياً عن الناس, عزيزاً بينهم, لا يذل لأحدٍ منهم. وقيل العبيد ثلاثة: عبد رق, وعبد شهوة وعبد طمع. وقد قال أحد الحكماء: سرور الدنيا أن تقنع بما رُزقت, وغمها أن تغتم لما لم تُرزق. وصدق القائل:

هي القناعةُ لا ترضى بها بدلاً فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن

انظر لمن ملك الدُنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

وأختم بقصة سيدنا عيسى عليه السلام ورفيقه والذهب. عندما كان عيسى عليه السلام في إحدى أسفاره طلب رجل مرافقته وسارا حتى إذا حان وقت الغداء جلسا لتناول الطعام, وكان عند سيدنا عيسى عليه السلام ثلاثة أرغفة فأكل واحد وأعطى الرجل الآخر وبقي الثالث. ثم قام عيسى عليه السلام إلى النهر ليشرب الماء ولما عاد لم يجد الرغيف الثالث فسأل صاحبه من أكله؟ قال لا أعلم. ثم قاما فأكملا المسير وسارا على ماء النهر ولم يغرقا فقال له عيسى عليه السلام: أسألك بالذي أراك هذه الآية, من صاحب الرغيف الثالث؟ قال: لا أعلم. ثم سارا فوجدا شاةً فذبحها وأكلاها ثم قال للعظام قومي بأمر الله فأحياها اللهُ من جديد. فقال لصاحبه: أسألك بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ قال: لا أعلم. ثم سارا فوجدا تلاه من تراب فقال لها كون ذهباً بأمر الله فأصبحت ذهباً. فقسمها ثلاثة أقسام. قال: هذا لي وهذا لك وهذا للذي أكل الرغيف الثالث. فقال الرجل: أنا أكلته. فقال له: خُذ كل شيء

ولا أريد مصاحبتك.ثم تفرقا. وسار الرجل وحده فتعرض له لصوص فأرادوا قتله وأخذ الذهب. فقال: لماذا القتل؟ نقسم الذهب على ثلاثة. فوافقوا. ثم أكملوا الطريق. وعندما جاءوا أرسلوا أحدهم لشراء الطعام وفي أثناء ذهابه لشراء الطعام حدثته نفسُهُ بالتخلص من صاحبيه وينفرد هوَ بالكنز وحده. فاشتر سماً ووضعه في الطعام وفي الوقت نفسه اتفق صاحباه على قتله عند عودته ليتقاسما الكنز فيما بينهما فقط. ولما عاد الرجل بالطعام المسموم قتلاه قم جلسا يأكلان الطعام فماتا من أثر السم. ثم مرَّ سيدنا عيسى ﷺ ورآهم موتى فقال: هكذا نهاية الطماعين ونهاية الطمع.

فيا أيها الأخوة: علينا أن نحرص أشد الحرص على القناعة وأن نجاهد أنفُسنا على طلبها كما حثنا نبينا ﷺ وكما ربى أصحابه على ذلك.

اللهم إنا نسألك الحياة الطيبة في الدين والدنيا والآخرة. اللهم اجعل قناعتنا في قلوبنا. اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا. اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك. اللهم اغفر لنا ذنوبنا وأصلح لنا أعمالنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.